أثر التناسب بين الآيات في الكشف عن وحدة البناء القرآني

(دراسة في ضوء جزء عَمَّ)

د. فاطمة دست رنج (الكاتب المسؤول)
استاذ مشارك، قسم علوم القرآن والحديث، جامعة اراك، إيران
f-dastranj@araku.ac.ir
فارس محمد علي
طالب ماجستير، قسم علوم القرآن والحديث، جامعة اراك، إيران
farisali8899m@gmail.com

The Effect of Correlation between Verses in Revealing the Unity of the Qur'anic Structure

(A study in light of juz' eamm)

Fatima Dastranj (Responsible writer)
Associate Professor , Department of Qur'anic and Hadith Sciences , Arak University , Iran
Faris Muhammad Ali
Master's student , Department of Qur'anic and Hadith Sciences , Arak University , Iran

الملخص:-

إن البناء اللغوي الفني عموما قائم على تناسب بين الكلمات والألفاظ المختارة في أي بناء لغوي مهما كان نوعه، وأيضاً طريقة البناء التركيبي التي تحيل إلى معان متناسبة، وذلك من خلال طريقة بناء التركيب ومواقع مفرداته نحويا التي تؤدي دورا محوريا في فهم المعنى، وبناء تفسير الجمل فضلا عن إحلال التأثير في نفس المتلقي.

إن النص القرآني من أعلى النصوص البلاغية مرتبة فقد قيّمه كثير من النقاد والبلاغيين على أنه نص بليغ بامتياز، وهذه البلاغة تتأتى في معظمها من التناسب القائم بين الأبنية اللغوية، وتموضع الألفاظ في المواقع النحوية الملائمة لتحيل إلى بناء تركيبي متين وذي معنى متراص مع السابق واللاحق، والبحث يتناول هذا البناء اللغوي المتين من جانب الدلالة القرآنية اللغوية، ودور الموسيقا في بنائها ضمن التشكيل اللغوي في دراسة تحليلية وصفية ضمن جزء عم.

الكلمات المفتاحية: التناسب، البناء، الألفاظ، السياق، التركيب، الفهم.

Abstract:-

Artistic linguistic construction is generally based on a coherence between the words and expressions chosen in any linguistic construction، regardless of its type. This is also achieved through the method of constructing the construction and the grammatical positions of its vocabulary، which play a pivotal role in understanding the meaning and constructing the interpretation of sentences، as well as influencing the recipient.

The Qur'anic text is among the highest-ranking rhetorical texts. Many critics and rhetoricians have rated it as an exceptionally eloquent text. This eloquence stems، for the most part، from the coherence between linguistic structures and the placement of words in appropriate grammatical positions، creating a solid، meaningful syntactic structure that is coherent with the preceding and succeeding words. This research examines this solid linguistic construction from the perspective of the Qur'anic linguistic meaning and the role of music in constructing it within the linguistic formation، in an analytical and descriptive study within the general section.

Key words: Coherence, structure, words, context, composition, understanding.

المقدمة:

إن اللغة العربية لغة غنية بالإمكانات والألفاظ، فضلا عن أنها غنية بالأساليب والتراكيب التي تجعل مهمة التواصل مهمة سهلة نسبيا، ولكن بشرط معرفة كيفية تسخير هذه الإمكانات والأساليب على نحو متناسب ومتناسق لبناء تركيبي رصين في النصوص اللغوية وذلك لأداء الدلالة على نحو مفهوم من جهة، ولأداء فني مؤثر في النصوص البلاغية من جهة ثانية، وذلك بالاعتماد على إمكانيات النحو ومواضع الألفاظ، وإمكانيات الأساليب التي تؤثر فيها كالتقديم والتأخير والحذف والذكر.

إن البناء اللغوي القرآني بناء فني عالي القدرة البلاغية بالارتكاز على التناسب سواء من جانب اختيار الألفاظ الملائمة أم من جانب اختيار الطريقة التي تُبنى بها التراكيب، أو من جانب الأساليب التركيبية النحوية، لتكون هذه الأمور إلى جانب دور السياق أكثر الأمور فاعلية في بناء الجانب التناسبي بين آيات القرآن الكريم هذا الجانب الذي يعد محوريا في بلاغة اللغة القرآنية، وقدرتها على تحقيق الأثر المطلوب.

أهمية البحث وأهدافه:

تنبع أهمية البحث من جانب الجدة إذ قلما تناولت الدراسات جانب التناسب ضمن البعد البلاغي اللغوي في اللغة القرآنية، لتكون هذه الدراسة من الدراسات الجديدة، ومن الدراسات المتعمقة في الجانب اللغوي البلاغي من جانب البناء واختيار الألفاظ، ومن جانب البعد النحوي ومواضع الألفاظ وإعرابها، فضلا عن التراكيب والأساليب التركيبية ودور السياق في ذلك كله، ليكون البحث من أهم الأبحاث التي تقدم دور التناسب على أنه دور محوري في البلاغة القرآنية، أما أهداف البحث فتتجسد في بيان دور التناسب في بناء اللغة القرآنية البلاغية من جانب الموسيقا، ومن جانب اختيار الألفاظ والبناء الأسلوبي التركيبي مجسدين دور كل واحد منهما من خلال نماذج قرآنية محللة وفقا لمقتضيات البحث، فضلا عن بيان دور السياق في تحديد الاتجاه المعنوي للربط اللفظي، وبيان دوره في تحقيق التناسب، من خلال التناول التحليلي العميق للشواهد المختارة.

منهجية البحث:

تستند على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على الاستقراء والاستنباط؛ وذلك لاستقراء المادة العلمية الخاصة بالتناسب في اللغة القرآنية ودراسة دورها الدلالي الفني على السواء.

تمهيد:

علم المناسبات بين سور القرآن الكريم أو بين الآيات في السورة الواحدة هو من العلوم الدقيقة، التي تحتاج إلى فهم عميق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوّق لنظمه المعجز وبيانه، بالإضافة إلى معايشة جو التنزيل. وغالبًا ما تطرأ على ذهن المفسر في صورة إشراقات فكرية أو روحية(مسلم، د.ت، ص ٨٥).

فإن كانت الآيات قد جُمعت بعد نزولها متفرقة، فإنها أثناء التنزيل نزلت مفرقة عن جمع، كأنها بناء قائم على قواعده، فلما أريد نقله إلى موضع آخر قُدّرت أبعاده ورُقّمت لبناته، ثم فُرّق أنقاضًا، فلم تلبث كل لبنة أن عرفت موضعها، فعاد البنيان مرصوصًا، يشدّ بعضه بعضًا، كهيئته الأولى(دراز،٢٠٠٥، ص١٥٤ - ١٥٥)، وعلم التناسب علم يبحث في المعاني الرابطة بين الآيات بعضها ببعض، وبين السور بعضها ببعض، لمعرفة الحكمة من ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره. ويعدّ الإمام أبو بكر النيسابوري أول من تحدث فيه، وكان إذا قُرئت عليه آية، قال: "لِمَ جُعلت هذه الآية جنب هذه؟ وما الحكمة في وضع هذه السورة إلى جانب هذه؟". ومن أشهر الكتب في هذا العلم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي، ويدخل الجانب اللغوي ضمن العمل البحثي وهو ما سيختص به البحث من جانب الألفاظ واختيارها، ومن جانب التراكيب واختيارها، ومن جانب السياق.

المبحث الأول

أثر الاختيار اللفظي في تشكيل التناسب اللغوي في وحدة البناء القرآني

إن اختيار الألفاظ له دور في البناء المعنوي اللغوي في النص القرآني، كما أن له دورا في بناء المعنى على نحو متقن وبليغ من خلال القدرة على ربط جزئيات المعنى ضمن البناء

السياقي الكلي لبيان الحكم الشرعي في الآية، وهذا الاختيار اللفظي يتوزع في اتجاهات ثلاثة اختيار الألفاظ الأسماء، واختيار الألفاظ الأفعال، واختيار الحروف.

المطلب الأول: اختيار الأسماء

إن الالتحام العضوي يعتمد على ألفاظ معينة قد تكون أسماء أو أفعال فيحدث الالتحام العضوي الموضوعي في بعض الأحيان بالاعتماد على ألفاظ محددة وذلك ضمن إنضاج الفكرة الأولية الخام (القضماني و إبراهيم، ١٩٩٨، ص٨٧)، وهو ما نراه في قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء، آية ٥)، نلاحظ لفظ(أموالكم) يتناسب ولفظ(قياما) فلفظ الأموال هو أساس العيش للإنسان ولفظ قياما وهو من سبل العيش فيحدث انسجام وتناسب ضمن بناء المعنى الكلي في الآية الكريمة وضمن بناء الحكم الشرعي فيها، وأما لفظ قولا وهو صيغة مصدرية فيعد مكملا ليكون لاختيار لفظ قياما دوره في تحقيق الانسجام والتناسب بين أجزاء الآية من خلال قدرته الذاتية على التعبير؛ إذ إن لكل لفظ قدرة ذاتية على التعبير(عبد البديع، ١٩٨٩، ص٦٥)، وهذه الدلالة الذاتية تجاوبت مع لفظ الأموال، ليشكلا نسيجا داخليا ضمن البناء السياقي العام في نص الآية الكريم، وركنا محوريا من أركانها.

المطلب الثاني: اختيار الأفعال

واختيار الأفعال لا يقل أهمية عن اختيار ألفاظ الأسماء في بناء نص الآية الكريم في جزء عم أو سواها؛ إذ يسهم في رسم الاتجاه اللغوي والبلاغي العام من خلال الضبط اللغوي المعنوي، وتحقيق الانسجام بين الأجزاء من خلال تناسبها فيما بينها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء، آية ٦).

الفعل(ادفعوا) والفعل المنهي(لا تأكلوها) يسهمان في تأكيد اتجاه الآية الكريمة وهو عدم أكل حقوق اليتامى تحت أي ظرف(ابن كثير، ٢٠٠٠، ص٤٤٢)، والنهي في الفعل(لا تأكلوها) يشتمل على صورة بلاغية تؤكد أن هضم حقوق اليتيم هو أشبه بنهشه ليكون

البعد البلاغي التصويري هنا متلائما والبعد الدلالي ولكن بصورة أقوى، ليكون تناغم هذا الفعل وتناسبه مع الفعل ادفعوا(وهو فعل أمر) واضحا ضمن البناء الموضوعي في الآية الكريمة فاختيار الألفاظ يسهم في الفنية اللغوية إلى جانب التناسب المعنوي(ويليك و وارين، د.ت، ص٢٣٤)، وضمن البناء الفني التصويري، ويأتي الفعلان(فليستعفف، فليأكل بالمعروف) ضمن تناقض ظاهر، ولكن ضمن الأنسجة اللغوية الخفية يحدث انسجام تام فالغني ليس بحاجة للأكل، بينما الفقير محتاج لتناول الطعام فجرى تقييد الفعل فليأكل بلفظ المعروف لينسجم مع الفعل السابق في ضوء البناء الفقهي الشرعي للآية الكريمة، وفي ضوء الإنذار في ختام الآية الكريمة(وكفى بالله حسيبا) فالله تعالى هو المراقب الأول لهذه التعليمات والأحكام الشرعية لينطوي هذا التركيب على تهديد ضمني ضمن اتجاه السياق اللغوي العام الذي قامت الآية الكريمة على أساسه.

المطلب الثالث: اختيار الحروف

واختيار الحروف له دوره أيضا في بناء النسيج اللغوي في الآيات على نحو منسجم، وضمن تحقيق التواصل الكلي مع المتلقي؛ فالحرف لا يقل أهمية عن الكلمة في تحقيق الانسجام اللغوي، وله دور فاعل في اللغة القرآنية، ومن ذلك في جزء عم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء، آية ١٠) ولفظ الحرف المشبه بالفعل(إن) يفيد دلالة التوكيد، ليأتي أسلوب القصر القائم على هذا الحرف(إنما يأكلون) ليفيد توكيد المعنى المراد في الصورة الفنية(يأكلون في بطونهم نارا) أي يأكلون ما سيلحق بهم الأذى والنار من أقوى الألفاظ المؤذية ضمن التهديد والوعيد، ليدخل اختيار هذا اللفظ ضمن المواءمة والتناسب الاسمي مع الحروف المختارة في إطار بناء الاتجاه الموضوعي العام، والحكم الشرعي وهو حرمة أكل مال اليتامى، ولفظ النار بدلالته الحرارة والحرقة(ابن منظور، ٢٠٠٥، مادة نور) من شأنه دعم التناسب مع الاختيار الحرفي للدعم التوكيدي.

المبحث الثاني

أثر الأساليب في تشكيل التناسب اللغوي في وحدة البناء القرآني

إن التشكيل الأسلوبي له دور في التناسب بين أجزاء الآيات القرآنية على صعيد دعم الاتجاه البنائي الموضوعي أو دعم الاتجاه الفني والاتجاه التأثيري؛ فللأساليب دور مهم في

تحقيق الأثر البنائي التناسبي عبر ارتباطها بالألفاظ الملائمة في الآية الكريمة، أو بتراكيب أخرى، هذا وتتنوع الأساليب التي تسهم في التناسب البنائي في اللغة القرآنية في جزء عم، ومن أبرزها التقديم والتأخير، والحذف والذكر.

المطلب الأول: أسلوب التقديم والتأخير:

التقديم والتأخير هو أحد الأساليب البلاغية المميزة في اللغة العربية، ويُقصد به مخالفة عناصر التركيب الترتيب الأصلي لها في السياق، فيتقدم ما كان أصله أن يتأخر ويتأخر ما الأصل فيه أن يتقدم، يعتبر هذا الأسلوب وسيلة فعّالة لتعزيز جمال التعبير وقوة المعنى، ويؤدي دورا في بعض الأحيان في خلق تناسب بين أجزاء الآية وفقا لطبيعة البناء الموضوعي والاتجاه التأثيري العام، ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق، آية ٤)، وهنا البناء الدلالي قائم على التقديم للجار والمجرور لما عليها، واللفظ حافظ كان من حقه التقديم ولكنه تأخر والتقديم أفاد هنا دلالة التخصيص(عتيق، ٢٠٠٩، ص١٣٩) فخصص الحفظ بما عليها والصيغة الصرفية(حافظ) التي أفادت الفاعلية تجاوبت وتناسبت مع حرف التوكيد في المطلع وهو الحرف المشبه بالفعل(إن) الذي يفيد دلالة التوكيد لتدخل الدلالة الكلية في تشكيلها ضمن صلب التوافق والتناسب بين دلالة الحرف المشبه بالفعل(إن) وأسلوب التقديم والتأخير بدلالته السياقية ليسهم هذا التناسب في صياغة المعنى الكلي للآية الكريمة ضمن تحقيق البناء الدلالي التناسبي الكلي.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق، آية ٦ - ٧ - ٨) فالجار والمجرور(على رجعه) تقدم على خبر إن(لقادر) والتقديم أفاد دلالة تقوية الحكم (عتيق،٢٠٠٩، ص١٣٨) ونلاحظ التناسب الذي أفاده التقديم عبر جعل ختام الآية متناسبا مع ختام الآية السادسة(قادر، دافق) فأفاد التناسب الموسيقي السجعي بين الآيات، وأفاد التناسب على مستوى الارتباط بلفظ يخرج في الآية السابقة فالرجعة حركة والخروج كذلك، والتناسب في هذا المقام على المستوى اللغوي العميق فيسهم في التوافق مع اللفظ وفي تعزيز دلالة التقديم السياقية البلاغية؛ إذ لا قيمة تُرجى أو تُنتفع من اللفظ بصورته المفردة أو المعزولة؛ فقيمة اللفظ الرئيسة أو الفعلية هي عند اقترانه بسواه من الألفاظ(عبد البديع، ١٩٩٧، ص٥٧)، واللفظان هنا اقترنا معا

(رجعة/يخرج) فأسهم الاقتران باقتران أسلوب التقديم مع اللفظ فأسهم في التناسب مع الآية الكريمة السابقة فكان له دور في تناسب الآيتين.

المطلب الثاني: أسلوب الحذف والذكر

هو أحد أساليب البلاغة ويُعرف بأنه حذف أحد طرفي الجملة الرئيسين أو ذكرهما وغيرهما وتذكر فى العبارة لسبب من الأسباب فله أغراض سواء في الحذف أو في الذكر فمثلا من أغراض ذكر المسند إليه أنّه الأصل ولا مقتضى للحذف، فاذا حذف ذهب المعنى، ضعف التعويل على القرينة، وذلك إذا ذكر المسند إليه فى الكلام وطال عهد السامع به، أو ذكر معه كلام فى شأن غيره مما يوقع فى اللبس إن لم يذكر، التنبيه على غباوة السامع حتى أنّه لا يفهم إلّا بالتصريح.(مطلوب، ١٩٨٠، ص١٥٩).

ومن ذلك أيضا زيادة الإيضاح والتقرير، أو إظهار التعظيم بالذكر أو إظهار الإهانة، أو التبرك باسمه، أو الاستلذاذ بذكره(مطلوب، ١٩٨٠، ص١٥٩).

ومن ورود الحذف في جزء عم قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية، آية: ١ - ٢ - ٣ - ٤) والأصل وجوه عاملة ناصبة في الآية الثالثة ولكن النص القرآني آثر الحذف بلاغة ليؤدي الحذف دلالة التعظيم للوجوه، ليعود الارتباط المعنوي على لفظ الخاشعة في الآية السابقة على هذه الآية(وجوه يومئذ خاشعة) فالخشوع من التقوى فيحدث ارتباط مع دلالة الحذف السياقية وتفعيل لها، كما يحدث التناسب التام بين الآيتين أساسه أسلوب الحذف الذي يجبر المتلقي على الارتداد إلى الآية السابقة دلاليا، وأيضاً في الآية التالية(تصلى نارا حامية) فالمراد الوجوه ذاتها، والارتباط والتناسب بين الآيات قائم على البعد الدلالي وأيضاً دلالة الحذف السياقية فيسهم بذلك في توضيح المعنى النصي المرتكز على الوجوه.

ومن ورود الذكر قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ (الغاشية، آية: ١٢ -١٣-١٤- ١٥) فلفظ الجار والمجرور فيها ذكر على التكرار للإسهام في التناسب بين الآية الثانية عشرة والآية الثالثة عشرة فكان النص القرآني قادرا على حذف الجار والمجرور(فيها) في الآية الثانية لكنه آثر الذكر للتأكيد على أهمية المذكور،

وأسلوب العطف في الآية التالية(وأكواب موضوعة) يتفاعل مع أسلوب الذكر ويقويه في باب التناسب بين الآيات ليكون الترابط قائما بينها على الجار والمجرور الذي يشكل محور البناء الدلالي، والتناسب يمتد إلى الآية الأخيرة عبر تكرار أسلوب العطف بالإحالة إلى اللفظ المذكور الذي أسهم في الربط التناسبي بين الآيات السابقة.

المطلب الثالث: أسلوب القصر

أُسلوبُ القَصرِ هوَ أُسلوبٌ منَ الأسَاليبِ الخَبريَةِ فِي اللُّغَةِ العَرَبيَة، والقَصْرُ مَعنَاهُ الحَصر؛ فَهوَ يُسمّى حصراً، ويُسمّى قَصراً؛ لأنّ الحَصرَ قَصرُ شَيءٍ على آخَر، فهما بمَعنىً واحد، وكِلاهُما فِي عُرفِ اللُّغويينَ يَعنيانِ: الحبسَ والإلزام. وفِي عُرفِ البَلَاغيينَ: تَخصيصُ شَئٍ بشئ، أو تخصيصُ أمرٍ بآخر بطَريقٍ مَخصوص. مِثالُ ذَلكَ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فَهُنا خَصّصَ اللّهُ شَيْئاً بشَئ، فالمَخصوصُ مُحَمّدٌ والمَخصوصُ فيهِ رَسُولٌ ومِثل: لا فَاهِمَ إلّا المُجدّ، فتكون فَاهِم مَحصوراً -مَقصوراً- والمُجدُّ مَحصوراً فِيهِ -مَقصوراً فِيه(العثيمين،٢٠١٣، ص ١٦٩).

ومن ورود القصر في جزء عم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (الليل، آية: ١٣ - ١٤ - ١٥) وهنا التخصيص في أسلوب القصر جاء في الأآية الأخيرة(لا يصلها إلا الأشقى) ليرتبط هذا التخصيص بالنار التي تحدثت عنها الآية السابقة على هذه الآية(فأنذرتكم نارا تلظى) فالنار عالية الشدة(لفظ تلظى) وعالية الحرارة ليكون لفظ الأشقى بصيغة التفضيل متناسبا تماما مع البناء الدلالي في الآية السابقة(دلالة اللفظ تلظى(ابن منظور،٢٠٠٥، مادة لظي) /آية أولى/- صيغة التفضيل الصرفية الأشقى /آية ثانية/) ولفظ(يصلها) ضمن القصر الذي يخصص الدلالة بالأشقى يصب في بناء الدلالة التناسبية مع الآية السابقة، بما يتلاءم ولفظ الإنذار في الآية السابقة ليحدث تناسب في التشكيل البنائي لكلا الآيتين المتناسبتين محوره المركزي أسلوب القصر، والنار التي ستصلي الشخص الشقي.

المبحث الثالث

دور السياق في إبراز التناسب في البناء القرآني

المطلب الأول: أثر السّياق في إبراز جماليّات نظم الآية

أُنْزِلَ القرآن للعظة والاعتبار، ولا يكون ذلك إلّا بتدبّره من خلا نأمّل بديع نظمه العجيب، ويقول تعالى في ذلك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد، الآية ٢٤)، فهو كتاب هداية وتشريع وإصلاح نفوس جامع لمصالح الدّنيا والآخرة، لا يجود بأسراره إلّا لمن تأمّله واعتبر ما فيه؛ ليدبّروا آياته، ولا عجب، فهو كتاب الله أبلغ درجات الفصاحة، وخير ممثّل للغة الأدبيّة المشتركة.

إنّ ألفاظ القرآن الكريم هي لبّ كلام العرب وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء، وإليها مفزع حذّاق الشّعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنّوى بالإضافة إلى أطايب الثّمرة.

لقد ربط القرآن الكريم بين سمو الكلمة وعمق الدّلالة، فبرز شامخاً في مبانيه، سيّالاً في معانيه، دقيقاً في جمله وتراكيبه ومفرداته، مكتنزاً في دلالته، محلقاً في أن يُجارى في أسلوبه، ينحدر منه السّيل، ولا يرقى إليه الطّير، ولعلّ هذه المزية المهمّة جعلت من الكتاب المبين ميداناً خصباً للدّراسات الأكاديميّة اللّغويّة.

إنّ اللّغة المثاليّة هي التي يكون فيها لكلّ بنية معنى واحد، ويرتبط كلّ معنى فيها ببنية واحدة فق، ومادام ذلك غير ممكن فإنّ اللّغة الطّبيعيّة تتميّز باشتراك دلالتين أو أكثر ببنية واحدة، والاشتراك «أن تدل اللّفظة الواحدة على عدّة معانٍ» (معن، ٢٠٠١م، ص٤٢).

وعندما يكون للفظ الواحد أكثر من دلالة، فإنّ السياق يبرز بوصفه الحكم الحاسم في تحديد الدّلالة، فهو الذي يحدّد أحد المعاني للّفظ المشترك، والذي لا يمكن أن يتجلّى إلّا في وجود الكلمة ضمن تركيب معيّن، «والسّياق هو الذي يعين أحد المعاني المشتركة للّفظ الواحد، وهذا السّياق لا يقوم على كلمة تنفرد وحدها في الذّهن، وإنّما يقوم على تركيب يوجد الارتباط بين أجزاء الجملة، فيخلع على اللّفظ المعنى المناسب»(الصّالح، ١٩٦٨م،

ص٣٠٤، عبد التواب، ١٩٩٩، ص٣٠٨). والأمثلة في القرآن كثيرة عن الألفاظ التي تعدّ من المشترك اللفظي.

وكثيرة هي الألفاظ القرآنية التي تتغير دلالاتها بتغير السياق، فمثلاً لفظة «الذِّكر» تأتي بمعنى الصّلاة، وبمعنى الخبر، وبمعنى الوعظ، وبمعنى الشّرف، وبمعنى القرآن. وكلمة «الأمّة» تأتي بمعنى "الجماعة"؛ أي: الكثرة المجتمعة، وبمعنى "الملّة لاجتماع النّاس عليها"، وبمعنى "أهل كلّ دين"؛ لأنّ الدّين جَمَعَ الجماعة، وبمعنى "السّنين لاجتماع الأيّام والشّهور في سنين كثيرة"، وبمعنى "القوم"؛ لأنّ القوم قاموا مع رئيسهم في التّسمية. كما تعني «الأمّة» النبي إبراهيم عليه السلام؛ لأنّه قد جمع اللّه الخيرات له، حتّى اتّخذه خليلاً، من اجتماع خصال الخيرات فيه(التّرمذي، ١٩٦٩، ص٨٢، وما بعدها).

ومن ذلك في جزء عم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (الفجر، آية: ١٦ - ١٧)، نلاحظ دور السياق في تحديد لفظ(قدر) الذي يحيل إلى تحديد لفظ رزقه فيقول في الجزء الثاني أهنن ليكون الشعور بنتيجة التحديد السياقي فكأن الشعور هو عدم الرضى، ثم يأتي لفظ(تكرمون) في الآية التالية في إطار التناسب مع شعور عدم الرضى ليحدث تناسب تام مع هذه الآية ولا سيما عبر حرف الزجر(كلا) الذي يتوافق وحالة عدم الرضى ليكون التوافق تاما، والتناسب بين الآيات بالارتكاز على السياق وقدراته في توجيه اللفظ وربط الألفاظ، هذا الربط الذي يسهم في تحديد معنى الآيات.

المطلب الثاني: أثر السّياق القرآني في تفسير المعنى ضمن التناسب:

ويسهم السياق في تفسير معنى الآية عبر التناسب بين أجزائها بعد تحديد معاني الكلمات وفق هذا التناسب ويبرز هذا الأثر المحوري في جزء عم في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (الليل، آية: ١- ٢-٣-٤)، وهنا يبرز دور السياق في تحديد معنى اللفظ تجلى والمراد الظهور والإتيان (ابن منظور،٢٠٠٥، مادة جلي) لأن الليل والنهار في دورة متوالية يغيب الأول ليظهر الثاني على نحو متواصل...، ليحدث التناسب مع الآية التالية عبر جمع المتضادات(ألذكر والأنثى) كما

تم جمع(حركة متضادات الليل والنهار)، فترتبط الآية الأولى مع الآية الثانية من خلال الألفاظ المتضادة(يغشى/تجلى)، ويتم الارتباط والتناسب مع الآية الثالثة من خلال لفظي(الذكر والأنثى)، والتركيز على التوكيد في الآية الأخيرة من خلال الحرف المشبه بالفعل(إن) ليحدث إطلاق تواتري للمتضادات يهدف إلى ربط سياق الآيات تناسبيا وجماليا بالارتكاز على جمالية التضاد، ولبيان معنى الآية وهو هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ **[أي: يعم]** الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب، ثم يبدأ النهار لتبدأ دورة جديدة...(ابن كثير، ٢٠٠٠، ص٢٠٠١).

المبحث الرابع

دور الموسيقا الداخلية في التناسب

تؤدي الموسيقى دوراً مهما في التناسب النصي؛ إذ تسهم في تحقيق الانسجام والتناغم داخل النص، سواء كان شعريًا أو نثريًا، تعمل الموسيقا على تعزيز الإيقاع، وإبراز المعاني، وتأثير العواطف، مما يجعل النص أكثر جاذبية وتأثيراً في المتلقي، وهو ما يبدو واضحا في النص الشعري، وفي النص القرآني أيضا؛ فلا يمكن في بعض الحالات إرساء الحكم الشرعي وتثبيته في نفس المتلقي من دون تناسب إيقاعي نغمي يحيل إلى تحقيق أثر على المستوى النفسي العميق عند المتلقي بما يجعله يتفاعل مع هذا الحكم، وهو ما نراه بوضوح في جزء عم في أكثر من موضع سواء على صعيد الحروف المنتقاة ضمن الألفاظ المختارة بعناية، أم من خلال التكرار اللفظي بكامله وهو ما يحقق نوعا من التأثير النفسي العميق ضمن التناسب الموسيقي الذي يتناغم والتناسب المعنوي، وذلك كالآتي.

المطلب الأول: نغم الحروف للألفاظ المختارة إلى جانب القافية الموسيقية(الوقفة الموسيقية):

إن للحروف أنغام معينة وتواترات مختلفة يمكن أن تسهم في تحقيق فاعلية التواصل الفني ضمن التناسب الكلي في الآية وهو ما يبرز في معظم آيات السورة الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (البلد، آية: ٨ – ٩ – ١٠ – ١١).

نلاحظ غلبة الحروف الشديدة الجزالة على ألفاظ الآيات؛ فمثلا الآية الأولى نلاحظ

حرف(الجيم) في الفعل(نجعل) وهو من الحروف الجزلة(عباس، ٩٩٨، ص١٠٢)، والتاء في الآية الثانية وهو من الحروف المتوسطة الشدة، والجيم مرة أخرى في الآية الثالثة(النجدين)، ثم يأتي حرف القاف في الآية الرابعة(العقبة) وهو من الحروف الجزلة أيضا(عباس، ١٩٩٨، ص١٤١)، ليحدث التناسب من باب الموسيقا بالارتكاز عل بالاختيار اللفظي المشتمل على الحروف المتناسبة في تغمها الداخلي، ومن جانب آخر نلاحظ في الآيات السابقة الوقفات الموسيقية المتناسبة والموحدة(بالياء والنون): عينين، شفتين، النجدين، ليكون البناء الموسيقي النغمي جزءا من التناسب البنائي النصي الكلي من خلال الانتقال إلى مرحلة التواؤم بين البناء الدلالي والبناء الموسيقي الكلي بجزأيه النغمي والموسيقي الخارجي....

المطلب الثاني: تكرار الكلمات:

إن تكرار الكلمات من شأنه أن يحقق تناسبا إيقاعيا عالي القدرة في الآيات القرآنية بما يحقق أثرا كبيرا في الفنية اللغوية ضمن البناء اللغوي وهو ما نراه في قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى﴾ (الضحى، آية: ٦-٧-٨)، وهنا حدث تكرار لمفردتين(بينكم وبينه)، والمفردة الأخرى(أفوز فوزا) فتكرار المفردة الأولى أسهم في جعل التناسب واقعا في الجزء الأول من الآية الكريمة، وتكرار المفردة الثانية أسهم في جعل التناسب واقعا في الجزء الثاني منها وذلك على المستوى البنائي الإيقاعي الذي يدخل في صلب تحقيق التناسب الكلي في البناء اللغوي الكلي للآية الكريمة؛ إذ إن تحقيق المعنى على مستوى متناسق يؤثر في النفس أكثر إذ تحقق التناسب الإيقاعي الكلي فيغدو تحقيق الفوز في الختام مؤثرا في النفس عبر الانسيابية الإيقاعية الكلية، وعبر تواصل التكرارين الموسيقيين يحدث تكامل في التناسب الإيقاعي ضمن توافق مع التناسب البنائي المعنوي بما يحقق تفاعلا كاملا من قبل المتلقي.

المطلب الثالث: اجتماع الاثنين معا:

ويحدث اجتماع الجانبين معا؛ التكرار الكلي للكلمات، والتناسب النغمي على صعيد الحروف في آيات معينة ليسهما في تحقيق بناء كلي متناسق ومتناسب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ (الطارق، آية: ١٥ - ١٦ - ١٧).

نلاحظ البناء الموسيقي النغمي قائم على تناسب الحروف الجزلة(الدال) هو من الحروف الجزلة(عباس، ١٩٩٨، ص٦٦)، وقد تكرر في الآيات السابقة(يكيدون، كيدا، وأكيد، رويدا)، وهذا التناسب النغمي الداخلي تصاحب مع تناسب من خلال التكرار اللفظي بذاته(يكيدون، كيدا، أكيد، كيدا) وهنا نلاحظ أن التناسب في التكرار اللفظي قوي لأن الألفاظ تتكرر بذاتها وبكامل حروفها ليكون ظلّها النغمي أكثر شدة في التناسب البنائي النصي من التناسب النغمي الحرفي المنفرد، وأيضاً قافية الآية الأولى مع الثانية تتكرر الألفاظ بذاتها(كيدا)، والقافية الثالثة تتناسب في الحروف الثلاثة الأخيرة(الياء والدال والألف)، ليكون التناسب الموسيقي الكلي هنا قائما على التناسب النغمي للحروف والتناسب في الخاتمة السجعية للآيات الكريمة، بما يخلق تناسبا نغميا تاما في البناء الإيقاعي لها، كما يدخل تكرار الكلمات بذاتها على أنه داعم مركزي للتكامل التناسبي الموسيقي الإيقاعي البنائي بين الآيات السابقة ولا سيما من خلال الارتكاز على القدرة النغمية للتكرار اللفظي فهي تحدث تناسب مضاعف القدرة من خلال التكرار الكامل للحروف كلها.

خاتمة:ـ

وبعد هذه الدراسة التحليلية للتناسب في اللغة القرآنية ودوره في الوحدة البنائية يمكن استعراض النتائج الآتية:

- أسهم اختيار الألفاظ الملائمة لألفاظ أخرى(سواء أكانت أفعالا أم أسماء أم صفات) في تحقيق التناسب ضمن البناء الوحدوي القرآني وذلك عبر التناسب إما مع ألفاظ أخرى أو مع أفعال أخرى.
- كان للأساليب البلاغية كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والقصر دور فاعل في تحقيق التناسب كأداة في تحقيق وحدة البناء النصي القرآني في جزء عم وذلك عبر إفادة معان بلاغية سياقية تدخل في صلب البناء المعنوي وفي صلب الفنية اللغوية القرآنية ضمن تحقيق الأثر البلاغي الكلي في المتلقي.
- كان للسياق دوره في تحقيق التناسب اللغوي من خلال دوره في إبراز جمالية الآية عبر توجيه دلالة الألفاظ وتحديدها ولا سيما الألفاظ المتعددة الدلالات بما يتناسب والبناء الموضوعي الكلي، وإبراز الحكم الشرعي.

- كان للسياق دور في تشكيل التناسب في الإطار المعنوي الصرف عبر تحديد دلالة بعض الكلمات المتعددة الدلالات في آيات السورة الكريمة، فكان أداة للتناسب من خلال جعل الجزئيات السياقية متوائمة بما يعكس تناسب الأبنية التركيبية ضمن التناسب المعنوي الكلي.

- دخل السياق في صلب التناسب الفني البلاغي عبر توجيه بعض الصور ضمن البناء الكلي بما يحقق التأثير النفسي في نفس المتلقي ضمن بيان الحكم الشرعي في هذه الآية أو تلك.

- أسهمت الموسيقا الداخلية في تشكيل التناسب بين أجزاء الآيات من جانب الاختيار الملائم للحروف التي تؤدي نغما متلائما مع نغم آخر(حرف آخر له نغم مماثل) بما يتلاءم والاتجاه البنائي الموضوعي الكلي، فكان لهذه الحروف(جزلة كانت، أم رقيقة) دور في تحقيق التناسب البنائي الكلي في الآية.

- أسهم تكرار الكلمات بكاملها في تشكيل وحدة الموسيقا الداخلية على صعيد البناء الموسيقي الإيقاعي الكلي الذي أسهم في تشكيل التناسب الموسيقي الذي شكل بدوره جزءا من التناسب البنائي الكلي للغة القرآنية في كثير من الآيات.

- ورد تكرار الحروف وتكرار الكلمات معا في بعض آيات السورة ليرسم هذا التكرار المزدوج أساسا متينا للتناسب الموسيقي الذي أرسى تناسبا كليا ضمن البناء المعنوي وضمن بيان الحكم الشرعي في الآية وتحقيق أثر بالغ له في نفس المتلقي.

قائمة المصادر والمراجع

- إن خير مانبتديء به القرآن الكريم.

١. ابن كثير، إ.(٢٠٠٠). تفسير القرآن العظيم. القاهرة: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

٢. ابن منظور،.(٢٠٠٥). لسان العرب(ي. البقاعي، إ. شمس الدين، و ن. علي، محررون). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٣. الترمذي، أ. ع. م. ب. ع. ب. ا.(١٩٦٩). تحصيل نظائر القرآن(ح. ن. زيدان، محرر). القاهرة: مطبعة السعادة.

٤. العثيمين، ح. ب. ص.(٢٠١٣). شرح البلاغة مِن كتاب قواعد اللُّغة العربية. عنيزة: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية.

٥. السيوطي، ج. ا.(١٩٨٨). معترك الأقران في إعجاز القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. دراز، م. ب. ع.(٢٠٠٥). النبأ العظيم. حلب: دار القلم.

٧. عباس، ح.(١٩٩٨). خصائص الحروف العربية ومعانيها -دراسة-. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

٨. عبد البديع، ل.(١٩٨٩). التركيب اللغوي للأدب(بحث في فلسفة اللغة والاستطيقيا). الرياض: دار المريخ للنشر.

٩. عبد البديع، ل.(١٩٩٧). ميتافيزيقا اللغة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠. عبد التواب، ر.(١٩٩٩). فصول في فقه العربيّة(ط٦). القاهرة: مكتبة الخانجي.

١١. عتيق، ع.(٢٠٠٩). علم المعاني. بيروت: دار النهضة العربية.

١٢. مطلوب، أ.(١٩٨٠). أساليب بلاغية. الكويت: وكالة المطبوعات.

١٣. مسلم، م.(د.ت). مباحث في التفسير الموضوعي. حلب: دار القلم.

١٤. معن، م. ع.(٢٠٠١). المعجم المفصّل في فقه اللّغة. بيروت: دار الكتب العلميّة.

١٥. ويليك، ر.، ووارين، أ.(د.ت). نظرية الأدب(م. صبحي، مترجم). دمشق: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

١٦. القضماني، ر.، وإبراهيم، ج.(١٩٩٨). مبادئ النقد الأدبي ونظرية الأدب. حمص.